تجليات الذَّاكِرَة فِي شَعْرِ الصَّعَالِيك / المكان – أنموذجاً

Manifestations of memory in the Al Saaliq's poetry – Place as a model

الأستاذ المساعد رفاه علي نعمه ابراهيم العزاوي
كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة بابل
الإيميل الجامعي: hum.rfah.ali@uobabylon.edu.iq

الباحث: حوراء نعمه كمال بيعي
Hawraabaiee222@gmail.com

Department of Arabic language / College of Education for Human Science/ University of Babylon

prof.dr.Rafah Ali Neima Al-Azzawi

Hawraa Neima Kamal Baiee

الخلاصة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين أبى القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين. وبعد ..

ارتأينا ان نعيش قطوفاً من اشعار الصعاليك التي تكشف لنا عن منحاهم الموضوعي وابعادهم النفسية وطوابعهم الفنية، والمغامرات التي عاشوها والقوافل التي امتطوها والبيوت التي سكنوها والأبيات التي تكلموها، فكل شاعرٌ صعلوك لا يخلو من الشعر.

كما نقفُ على مضامين جانبية في شعرهم، فنرى أنّ التجارب والمعاناة قد علمتهم كثيراً من العظات والعبر والحكم باللون الخاص الذي أذاقوا فيه مرارة الحِرمان والفقر والمطاردة، فنراهم تارة يطلبون المال بشتى الوسائل ويحملونَ على الفقر، وتارة أخرى يتنقلون وسط الغارات والمخاطر.

فما تقدم كان لشعر الصعاليك في العصر الجاهلي، اما عندما بزغ العصر الاسلامي فحينئذ ضعف شعر الصعاليك وأزيحت الصعلكة، ولكنها أطلت برأسها بقوة بعد صدر الإسلام ، وتردد شعر الصعاليك في العصر الذي جاء بعد الاسلام وهو العصر الأموي، كما انهم عالجوا الكثير من معاني المفردات التي طرقوها في العصر الجاهلي.

وظفرت الدولة الأموية بالصعاليك فوضعوهم في السجون وقيودهم فذهبوا يتكلمون عن ظلمهم وتعذيبهم وسجونهم ويصورون للناس مشاعرهم وهم خلف قضبان السجون، كذلك أنّ بعض هؤلاء الصعاليك أخذ يتوب الى رشده، فيستغفر الله ، ويتضرع إليه ويدعوه جهاراً أنْ ينقذه من الظلم الذي فيه؛ لشدة ما لاقى من التعذيب والبلاء.

الكلمات المفتاحية **: (الذاكرة، الصعاليك، المكان).**

:Summary

Thank God the Lord of the two worlds and prayer and peace for the Ashraf of Allah created all ...the Father of Al-Qassim Muhammad and the good and clean God. And then

We have decided to live with a few of the Saalik's notifications that reveal their objective grants, psychological dimensions, artistic stamps, adventures, caravans, houses they inhabit and the .verses they speak

We see that experiences and suffering have taught them a lot of preaches, lessons and judgment .in the special color in which they have tasted the bitterness of deprivation, poverty and stalking

The above was the poetry of the Saqalik in the ignorant era. When the Islamic era emerged, the hairs of the Saqalik were weakened and the Saqalik was removed, but they prolonged their head in strength after the chest of Islam, and the hairs of the High in the **post**-Islamic era, which ., and they addressed many of the vocabulary they knocked came after the Islamic Era

The Umayyad State has kept them in prisons and their limitations. They have gone to talk about their injustice, torture and prisons. They portray their feelings to people behind prison bars. Some of them have come to their senses, and God forgives his Lord, and he obeys him and calls .him out of his injustice. to the severity of the torture and scourge suffered
place). ,Keywords: **(memory, Saalik's**

الذاكرة: لغة واصطلاحاً

الذاكرة في مفهومها اللغوي، كما جاء في لسان العرب: " ذكر: الذكْرُ: الحفظ للشيء تَذْكُرهُ. والذِّكْرُ أيضاً : الشيءُ يجري على اللسان. والذِّكْرُ: جريُ الشيء على لسانك...، ذكرهُ يذْكُرهُ ذكْراً وذُكْراً "[١]. أي ان الذكر هو ما يحفظ وما يجري على اللسان.

كذلك " واذكره إياه: ذكره، والاسم الذكرى. الفراء : يكون الذكرى بمعنى الذكر، ويكون بمعنى التذكر في قوله تعالى : (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) *. والذكر الذكرى : نقيض النسيان، وكذلك الذكرة " [٢]، قال كعب بن زهير [٣] :

أنّى ألمَّ بكَ الخيالُ يطيفُ ومطافه لكَ ذِكرةٌ و شُعُوفُ

وجاء في القاموس المحيط " التذكرة ما يستذكر به الحاجة والذكارة، كرمانة، فحال النخل. والاستذكار: الدراسة والحفظ "[٤].

وايضاً " واستذكر الشيء: درسه للذكر ...، والتذكر: تذكر ما انسته. وذكرت الشيء بعد النسيان وذكره بلساني وبقلبي وتذكرته واذكرته غيري وذكرته . قال الله تعالى :(واذكر بعد امةٍ)*، اي ذكر بعد نسيان ، واصله اذكر فأدغم"[٥].

الذاكرة: اصطلاحا

إنّ مفهوم الذاكرة متشعب ومتنوع وواسع، تناولته المرجعيات الفلسفية ،والادبية، والنفسية، فنجد أنّ الذاكرة هي " القدرة على حفظ الخبرات السابقة واسترجاعاها في الوقت المناسب"[٦].

ايّ أنّها تقوم على استرجاع المعارف والخبرات التي سبق ان حفظت في الذاكرة في الوقت الحاضر ، ولأنّ الانسان لا يمكن أنْ تحقق ذاته بدون ذاكرة وتذكر وذكرى واستذكار.

الـــذاكرة فـــي الأدب:

إنّ الحديث عن الذاكرة وفاعليتها الأدبية بغض النظر عن أنّها استرجاع الخبرات والمعارف أو هي حدث لاستذكار ماضٍ فهي، " معرفة حدث أو حقيقة لم نكن نفكر بها في الوقت الواقع بين وقوعها ، وتذكرها مع الوعي المضاف بأننا قد فكرنا بها

---

(١) لسان العرب مادة (ذكر).

- سورة الذاريات : الآية ٥٥ .

(٢) لسان العرب مادة (ذكر).

(٣) ديوان كعب بن زهير، حققه و شرحه وقدم له : الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٧ : ٤٩.

(٤) القاموس المحيط، مجد الدين محمد الفيروزآبادي، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، اشراف : محمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان ، ط٨، ٢٠٠٥ :٣٩٧ .

- سورة يوسف : الآية ٤٥ .

(٥) لسان العرب مادة (ذكر).

(٦) المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٩٩م :١ / ٤٦٠.

و عبرنا عنها من قبل "[٧]، ومن خلال الترابط بين الحدث الحاضر والحدث الماضي نصل الى ذروة الذاكرة في الواقع المعاش الحقيقي، فعندما نعود الى الحدث الماضي وصولاً الى الحدث الحاضر مروراً بالواقع المعاش نستنتج الذاكرة تقودنا الى التذكر.

ويقول د. جمال شحيّد: " عملية التذكر تنقلني من اللحظة التي اعيشها الآن إلى لحظة أخرى عبرت في حياتي أو قرأت عنها أو سمعت أحدهم يتكلم عنها، إنها تواشج بين زمنين مترابطين يُشعرني بوجودي"[٨].

ولا يمكن للإنسان استعادة الماضي بحركة صغيرة نتيجة الصراع بين الماضي والحاضر، وشبه فرويد هذا الصراع بأن الذاكرة هي كمدينة كبيرة لها بناياتها و شوارعها وبيوتها وحدائقها وفيها مناطق مهجورة أو مهدومة [٩].

وتتداخل الذاكرة مع المخيلة التي تقودنا الى الصور التخيلية و لأن التخيل غير التذكر بالرغم من أنّ كلاهما يتمحور حول الماضي، فالتذكر هو استحضار صورة ماضية مع تحديد الظروف الزمنية ويكون في الغالب حقيقة ، أما التخييل فإنه يتميز بجانب إبداعي، فهو القدرة على إنشاء صور وأفكار جديدة بالتحرر من الزمان ويكون في الغالب وهم [١٠].

فمن خلال ذلك نفهم أنّ فاعلية الخيال داخل الذاكرة لتحفيزها في إنتاج أشكال الإبداع [١١] " فالخيال مقدرة عند الانسان ترتبط بالأفكار والتجديد...، فضلا عن كونه الأداة التي تقوم عليها العملية الإبداعية...، فلا تقوم المعرفة دون الخيال"[١٢].

ويساهم الخيال في فكرة أن " انطباع الشيء المحسوس الذي يتخلف في الدماغ ليس واحداً ...، إننا في الحقيقة لا نحتفظ للشيء بذكرى واحدة ، و إنما بذكريات كثيرة، وذلك أنَّ شكلَ الشيء وأبعاده وألوانه تتغير بتغير مستوى النظر"[١٣].

وبهذا يكون للخيال دور أساس في تشكيل الذاكرة " لما له من القدرة على تحفيزها و ربط الأجزاء إبتداء من مخيلة المبدع وانتهاء بما دونه من صور لها بالواقع" [١٤].

فيسهم الخيال في تحفيز الذاكرة من أجل انتاج الصور التي تتشكل عندها الذاكرة تشكلاً إبداعياً خالصاً في إظهار المخزون الذاكراتي الكامن في ذات الشاعر.

فالذاكرة ركيزة من الركائز الأساسية في العملية الابداعية عامة والشعرية خاصة؛ لأنها تمثل وعاء يحوي ماضي الانسان بكل أفراحه و أحزانه، فهي مستودع ، و مخزون للنفس الانسانية التي يسترجعها الانسان و"عندما ترتبط الذاكرة الشعرية

([٧]) الذاكرة في الفلسفة و الأدب، ميري ورنوك، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط١، م٢٠٠٧م : ٩٦ – ٩٧.

([٨]) الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، د. جمال شحيد، المؤسسة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١١م : ٢٣.

([٩]) ينظر: الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة : ٣٣.

([١٠]) ينظر: الذاكرة والمتخيل نظرية التأويل عند غاستون باشلار، د. أحمد عويز، دار الرافدين ، بيروت – لبنان ، ط١، ٢٠١٧م : ٢٩.

([١١]) ينظر: تنصيص الذاكرة في الشعر العراقي الحديث – التجربة الشعرية عند الروّاد – ، د. فاتن عبد الجبار جواد ، تموز للطباعة و النشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٢م: ٦١.

([١٢]) فاعلية الذاكرة في تليباثي بين أسطرة الواقع و سحر الخيال ، د. ايمان العبيدي، دار غيداء للنشر، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٨م : ٤٠.

([١٣]) الخيال مفهوماته و وظائفه ، د. عاطف جوده نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م : ٥٤.

([١٤]) فاعلية الذاكرة في شعر ابن زيدون ، د. صالح ويس محمد، جامعة تكريت، كلية الآداب، مجلة آداب الفراهيدي، المجلد ١٢، ع : ٤٣ ، ٢٠٢٠م : ٦٢ .

بالإبداع ، و تستند الى الماضي في بعث انجازات الحاضر، لخلق حالة جديدة تتواشج مع جوهر بناء القصيدة و تدفقها نحو التنامي و الجدلية العميقة بين الشعر و الزمن"[١٥].

و تعد اللغة من أدوات التعبير التي لها صلة بمخزونات الذاكرة التي تفتح أفق الإبداع ، كذلك أنّ اللغة هي انتاج للذات من خلال اتصالها مع الذاكرة بحيث يتولد من خلالها مظاهر إبداعية ذاكراتية، وتحتاج هذه اللغة الى الخيال لأنها " مهما بلغت من القوة و الحياة فلا و لن تستطيع أن تنهض – من دون الخيال – بهذا العبء الكبير الذي يرهقها به الانسان ...، و أنما الخيال يمدّها بقوة ما كانت لتجده لولاه "[١٦].

و إذا كانت الذاكرة أحدى المكونات الأساسية للوجود الإنساني، فإن اللغة هي الرابط الحقيقي لهذه الذاكرة؛ لأن اللغة هي "التي تسمح بإعادة سرد أحداث الماضي، و إعادة تشكلها في زمان و مكان مختلفين "[١٧].

الصعاليك: لغةً واصطلاحاً

جاء في لسان العرب أنّ " الصعلوك : الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهريُّ: ولا اعتماد. وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك .

وقال حاتم طيء [١٨]:

عُنينا زماناً بالتصعلكِ و الغنى كما الدهر، في أيامه العسرُ واليسرُ
فما زادنا بأواً على ذي قرابــةٍ غنانا و لا أزرى بـأحسابنـــا الفقرُ

أي عشنا زماناً، وقد تصعلكت الأبل: خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها. والتصعلك: الفقير. وصعاليك العرب: ذوبانها. وكان عروة بن الورد يسمى: عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه" [١٩].

و يقال: " الصَّعْل والصَّعْلة من قولهم :ظليم أصَعْل ونعامة النخلة اذا دق رأسها. وقد سمّيت العرب صَعْيلا "[٢٠].

فمن الواضح أن المعاني اللغوية للفظة الصعلوك كثيرة، وجميعها تجتمع لتؤلف معنى الصعلكة لغةً، ومن خلال ذلك نستطيع أن نقول بأنَّ الصعلوك سمّي بذلك لصغر رأسه، و دقة عنقه ، و الحالة التي يلازمها في حالة التلصص من أجل حماية نفسه وخوفاً من أن يراه أعداؤه.

أما اصطلاحاً: فقد أخذت كلمة الصعلكة لتدل على جماعة يتصفون بالفقر " فالصعلوك هو الفقير الذي يتخذ من اللصوصية، وسيلة للكسب بعد أنْ خلعته قبيلته، أو بعد أنْ خرج عن عرف الجماعة "[٢١] فالفقر هو سبب امتهان الصعلكة

([١٥]) في الذاكرة الشعرية، قيس كاظم الجنابي، مطبعة العاني، بغداد: ٧.

([١٦]) الخيال الشعري عند العرب ابو القاسم الشابي، أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٥م : ٣١.

([١٧]) إرادة النسيان: اللغة والتاريخ عند بول ريكو، منذر شباني، سورية، مجلة جامعة تشرين للبحوث، سلسلة الآداب والعلوم الانسانية، المجلد ٤٠، ع : ٣، ٢٠١٨م : ٣٣٦.

([١٨]) ديوان حاتم الطائي، دار صادر، بيروت، ١٩٨١: ٥١.

([١٩]) لسان العرب مادة (صعلك).

([٢٠]) كتاب جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، حققه وقدم له د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٧م : ١ / ٨٨٦ – ٨٨٧.

([٢١]) دراسات في الأدب الجاهلي، عبد العزيز نبوي، مؤسسة المختار، ط٣: ١٦٠.

وهي حقيقة واقعية في المجتمع العربي القديم الذي يفسر ظاهرة الصعلكة بأنها " ثورة الانسان الكادح الذي ألقت به ظروف مجتمعه الى القاع ضد الأثرياء الذين يمسكون مالهم عن اخوانهم من البشر الجائعة "[٢٢].

" و يحاول علماء النفس المحدثون دراسة هذه المسألة، و أشباهها على أساس ما يسمونه " عقدة الفقر" و هي تلك التي تتكون نتيجة للإحساس بالفقر، فهذه العقدة هي المحور الذي تدور حوله تلك الآثار النفسية التي خلفها الفقر في نفس الفقير"[٢٣]، فالصعلكة وإنْ كانت تعني الفقر لكنها مهنة امتهنها أصحابها بسبب الفقر والجوع والحرمان والبؤس

فيمكن وصفهم بأنهم " جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية يكسبون العيش بالنهب والسلب ...، رأوا انفسهم مجردين من وسائل الحياة المشروعة النبيلة في بلاد حفلت بالقسوة وراحوا يملأون الفلوات والجبال، و الأودية رُعباً وهولاً، ويرفعون علم الصعلكة عالياً "[٢٤].

ولقد تطورت لفظة الصعلوك فلم تعد تشير الى الفقير بل أخذت تدل على " من يتجردون للغارات و قطع الطرق. ويمكن أنْ نميزّ فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية ،وابي الطمحان القيني. ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آباؤهم، و لم يلحقوا بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة، وتأبط شرا ،و الشنفرى، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإماء الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وحينئذٍ قد تكون افراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هُذيل وفهم "[٢٥].

وأهم ما يميز شعر الصعاليك فكرة رفض الجوع والفقر، ومجابهة الأغنياء وسادات القبيلة التي تفرق بين الفقير والغني، ونجد أنّهم امتازوا بإصرارهم وشجاعتهم وطول صبرهم ، وسخاء كرمهم على فقرائهم وأهليهم [٢٦].

عندما جاء الإسلام ضعفت ظاهرة الصعلكة أو أختفت، كما يرى الدكتور حسين عطوان فيقول: " فلما أشرقت الجزيرة بنور ربها اختفت ظاهرة الصعلكة في صدر الإسلام، إذ قلّ عدد الشعراء الصعاليك قلة ملحوظة، وتضاءل نشاطهم تضاؤلاً شديداً "[٢٧].

ويرجع ذلك أنّ الإسلام عند مجيئه قد هدم النظام القبلي الجاهلي، لأنه كان يقوم على التفرقة والتناصر فيما بينهم فلم تعد القبيلة هي التي تجمعهم، بل صار الإسلام هو الذي يجمع بينهم، فتحول العرب من النظام القبلي إلى نظام الأمة التي ترتبط بالإسلام إرتباطاً متماسكاً قائماً على المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات دون الرجوع الى أصولهم و أجناسهم.

و قد أرسى الاسلام قواعد تتضمن الدعوة الى الدين الجديد ،و التوحيد، والايمان بالله ،والمساواة بين الناس، وجعل الزكاة ركناً أصيلاً من أركانه، و جعل لهم حقاً في الغنائم التي يحصل عليها المسلمون في الحروب، وغيرها من التعاليم التي أرساها الاسلام لتكون خيراً للأمة [٢٨].

([٢٢]) م . ن : ١٦١.

([٢٣]) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار المعارف ط٣ ، ١٩٦٦م : ٣٢.

([٢٤]) الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم، حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦م : ١٦٤ – ١٦٥.

([٢٥]) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٨: ٣٧٥.

([٢٦]) ينظر: المعجم المفصل في الأدب : ٢ / ٥٨٦. و ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي : ٣٧٥.

([٢٧]) الشعراء الصعاليك في صدر الاسلام والعصر الأموي، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت ، ط١، ١٩٧٠م : ١١.

([٢٨]) ينظر: م . ن : ١١ – ١٢ .

وهذا يدل على أنّ المدة التي جاء بها الاسلام استقرت فيها الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأصبح هناك قوانين و حقوق وواجبات تسير على كافة الناس لا فرق بين شخص واخر.

ونجد أبا خراش الهذلي تاب عن الصعلكة، وحسن أسلامه، وسار على تعاليم الدين الجديد " وانه يشبه قواعد الدين الجديد، وحدوده بالسلاسل التي أحاطت بالرقاب فإذا هو عاجز عن الفكاك منها و الخروج عليها "[٢٩]،

فيقول[٣٠]:

فليس كعهد الدار يا أم مالك و لكن احاطتْ بالرقاب السلاسل
و عاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أما في العصر الأموي فقد برزت الصعلكة من جديد، وانقسم الصعاليك في هذا العصر على أربع فئات كما جاءت في المصادر و هي:

١- **فئة الصعاليك الفقراء:** ظهرت هذه الفئة نتيجة لأسباب اقتصادية حيث أنّ " أغلب الخلفاء الأمويين محتاجون الى الأموال أشد الحاجة ...، ومن أشهر مظاهر الفساد الاقتصادي لهذا العصر قسوة العمال الذين كانوا يتولون جباية الصدقات والخراج المشروعة "[٣١]، وأبرز من يمثل هذه الفئة: مالك بن الريب، أبو النشناش التميمي، و طهمان بن عمرو وغيرهم.

٢- **فئة الخلعاء والشذاذ:** وهذه الفئة تتألف من " خلعاء القبائل و شذاذها الذين أنحرف سلوكهم في قبائلهم أو غيرها فخلعتهم، وتنصلت منهم، و توقفت عن المطالبة بحقوقهم، و النهوض بجرائرهم ...، أمثال: الخطيم العُكلي، ومسعود بن خرشة التميمي "[٣٢] و غيرهم.

٣- **فئة الفارين من العدالة:** " وهؤلاء الذين أرتكبوا جناية، واعتدوا على غيرهم أما بالقتل أو بالسرقة. وكانت أعمالهم الشاذة قد وصلت الى العمال و الخليفة. فطولبت قبائلهم بهم، ففروا من الطلب و العقاب، و منهم القتّال الكلابي و القتال الباهلي"[٣٣] وغيرهم.

٤- **فئة الصعاليك السياسيين:** " وهم الذين يئسوا من تصارع الأحزاب وتطاحنها على الخلافة، ويئسوا كذلك من عدل الدولة الأموية، وناصبوها العداء، وخرجوا عليها منذرين متوعدين وثائرين ومنهم: أبو حردبة المازني التميمي، وعبدالله بن الحجاج الثعلبي"[٣٤] وغيرهم، وهذه لا تختلف في تكوينها ،ومبادئها، وصفاتها عن صعاليك العصر الجاهلي، و قد كانت العوامل السياسية ،والاقتصادية، والاجتماعية هي أسباب لظهور الصعلكة في العصر الأموي.

([٢٩]) الصعاليك في العصر الأموي اخبارهم و أشعارهم ، محمد رضا مرَّوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٠م: ١٨.

([٣٠]) كتاب شرح أشعار الهذليين ، صنعه أبي سعيد الحسن بن الحسين السُكَّري ، رواية أبي الحسن بن علي النحوي عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني ، تح : عبد الستار أحمد فرج ، راجعه محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، ١٩٦٥م : ٣ / ١٢٢٣.

([٣١]) الشعراء الصعاليك في صدر الاسلام والعصر الأموي: ٣٤.

([٣٢]) الصعاليك في العصر الأموي اخبارهم وأشعارهم: ٧٠.

([٣٣]) م . ن : ٧٠ .

([٣٤]) م . ن : ٧١ .

- **تجليات الذاكرة في شعر الصعاليك / المكان**

ليس للمكان معطى خارجيٌ محايدٌ ، فإنّه الفضاء الذي نعيش فيه ، الذي يؤثّر فينا سلباً وإيجاباً ، و إنّه الموضع الذي ولِد فيه الإنسان ، و نشأ ، و ترعرع لذلك يملك كيانه، و نوازعه و هواه . و قد احتلّ المكان حيزاً ظاهراً في الدراسات الأدبية ، و يرجع ذلك لكونه دعامةً أساسية لكلّ تصورٍ إنساني ، و منطلقاً لكلّ دراسة جادة تريد أن تُدرك أبعاد النّص و خلفياته النفسية و الاجتماعية و الجمالية .

و هناك ترابط بين الذاكرة و المكان ، فالذاكرة المكانية تستند " في رصدها الى منظور بصري قوامه فعل الرؤية الحاصلة في الزمن الماضي ، و المخزونة بعد فعل الرؤية في دهاليز الذاكرة ، التي تعمل بفاعلية كبيرة في الحفاظ على مخزونها بأشكاله المختلفة ... ، و من ثم استدعائه لحظة الفعل الابداعي لتحريره من ماضويته التاريخية " [٣٥].

في الشعر ، فالمكان هو كيان نفسي ذو أبعاد؛ فهو حاملٌ للمشاعر، والعواطف، والمواقف الوجودية ، يعبر الشاعر من خلاله عن تجربته الشعورية ،و مواقفه الجمالية بعد أن شكّله تشكيلاً يتناسب و ما أراد التعبير عنه ، و " إنّ المكان الشعري يعيد تشكيل صورة مكان الألفة و يزيد من سطوعها، و تعميقها حدّ انفصال الشاعر نفسه في مكان القصيدة الشعرية " [٣٦].

كذلك يرتبط المكان بالشاعر ارتباطاً ملازماً ، فـ" تترك الحوادث أثرها البعيد في نفسه فيعيش الذكريات ، حتى يجعل منها حقيقة يسترجع بها مشاعره الغابرة في كل مكان مرّ به ، فعوالمه ، و أماكنه متنوعة غنية بالمشاهد، و الأحاسيس ، فصور الجمال لا تفارق ناظريه فهو يلتقطها بعين مصورة " [٣٧] و لأن الشاعر يولد و يعيش و يموت في مكان ، فالمكان هو أساس وجود الشاعر و لذلك " علق ذهن الشاعر بوصف مكان الأهل و الأحبة ، حتى أصبح خاصية في نشاطه الفني يعبر من خلاله عن همومه ، و مآسيه التي علقت بذاكرته ، فحركت وجدانه للتعبير عن مكنوناته الذاتية في تفردها، و وحدتها المنغلقة على ذاتها ، و دوافعه المحيطة به "[٣٨] .

و للمكان عند الصعاليك بعد آخر فقد " ، أصبح شعرهم معجماً للأماكن و المواقع سواء أكانت واسعة أم محددة ، كبيرة أم صغيرة ، خاملة أم فاعلة ، فهم لم يتركوا موقعاً من المواقع إلا وظفوه في شعرهم جاعلين من الأماكن بتنوعاتها المختلفة و أشكالها المتباينة عنصراً أساسياً من عناصر مادتهم الشعرية " [٣٩] .

كذلك وظّفوا المكان فــي شعرهم بكل أنواعه كــالصحراء بشكل رئيس و الجبال و الوديان و المراقب ، " التي تركت في نفوسهم مشاعر الرفض و العداء في نفوسهم جاعلين منها سبباً في تشردهم و لجوئهم الى مكان الصحراء ، كما ذكروا منازل القبائل و أحياء العرب ، و مواضع الحروب و أماكن الغزو أو المطاردة و الصيد ، و طرق العيش ، لهذا كان المكان عندهم القرطاس الذي يكتب على صفحاته تاريخ الانسان "[٤٠] و " الصحراء بالنسبة لهم دار إقامة ، فكان له الأثر السلبي و الايجابي في نفس الوقت على حياة هؤلاء الصعاليك ، فتتمثل النظرة العدائية بعداً من الجانب السلبي ، بعد أنْ عانوا من الظلم و الاضطهاد و التشرد من قبل قبائلهم ، و التي ألقت بهم في غيابات الصحراء المترامية الأطراف ، و الجانب الإيجابي

([٣٥]) أسرار السرد من الذاكرة الى الحلم (قراءات في سرديات سعدي المالح) أعداد و تقديم و مشاركة د. محمد صابر عبيد ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط١ ، ٢٠١٢م : ٢٠ .
([٣٦]) المكان في النصّ المسرحي ، سمير علي الدليمي ، دار الكندي للنشر و التوزيع ، اربد ، الأردن ، ١٩٨٨م : ١٢٦ .
([٣٧]) قراءة في ديوان غنائيات الحب و الحياة ، عبد اللطيف أرناؤوط ، المجلة العربية ، سوريا ، ع : ٩٨ ، ١٩٩٣م : ٨٨ .
([٣٨]) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي دراسة ، د. عبد القادر فيدوح ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٩م : ٢٣٤ ــ ٢٤٤ .
([٣٩]) المكان في شعر الصعاليك و الفتاك الى نهاية العصر الأموي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، خالد جعفر مبارك ، جامعة ديالى ، ٢٠٠٦م : ١٣ .
([٤٠]) م . ن : ١٣ .

يتمثل في كون هذا المكان – الصحراء – قد خلق منهم رجالا أقوياء يمتازون بالشجاعة والصبر" [٤١] ولهذا تأبط شرا يألف المكان ويستذكر ما فيه من وحوش حين قال [٤٢] :

يبيت بمغني الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمي لها – الدهر – مرتعا

رأين فتى لا صيد وحش يهمه فلو صافحت أنسا لصافحنه معا

للمكان أثر كبير في ذاكرة الشاعر لأن بهما يقوم الشعر و به يسترجع الشاعر ذكرياته و يستحضر هذه الأماكن، و ما فيها من أحداث و مخزون ذاكراتي .

إذ أن المكان يمثل باعثا من بواعث قول الشاعر ، و قد جسد دلالات مختلفة لدى الشاعر مثل الألفة ، والعدائية ، و الغربة ، و الحنين [٤٣]. فالمكان " هو العنصر الأكثر تمظهراً و حساسية في اشتغال الذاكرة و تحريضها على استعادة الأشياء التي ترسم صورة المكان المستعاد ، و الشعر كفيل بهذه المهمة حيث يحضر المكان و تحضر الذاكرة في صلب العمل الشعري ، و تكون اللغة الشعرية دائماً هي الوسيط المثالي لتحقيق هذه العلاقة الجدلية بين العناصر " [٤٤] .

و من تجليات الذاكرة في شعر الصعاليك ، يقول عروة بن الورد [٤٥] :

ألم تعرف منــازل أم عمرو بمنعرجِ النواصف من أبـانِ

وقفتُ بها ففاض الدمع مني كمنحدرٍ مـن النظم الجُمانِ

و لكن لا يلبثُ وصلَ حيّ وجدةَ وجهـه مـرّ الزمانِ

في هذا النص يبحث الشاعر عن مواطن الذاكرة في منازل أم عمرو فيسترجع بذاكرته أثرها بعد أن فارقته .

استرجع الشاعر صورة من صور الذاكرة و هي مكان زوجه معبراً فيها عن ألمه و احساسه بوجع الذكريات الماضية فيذكر لفظة (منازل) و هي دلالة مكانية و لها أبعاد على نفسية الشاعر المتأزمة ، فهو يسأل نفسه فتتهيج حسراته و عبراته ، فالمكان أثار ذكرياته الماضية الحزينة ، التي فاض دمعه بها استذكاراً لها " فهذا المكان فجرَّ براكين الألم في حنايا نفسه المتألمة على فراق زوجه ، فأنثال شعراً يشع بحرارة الحسرات و لهيب الآهات ، مشوباً بالانفعال الصادق ، معبراً عن قلبه الجريح الذي ينزف ذكرى نعيمه و هنائه في جوار من شاء القدر أن يفرق بينهما " [٤٦] إذ يقول :

وقفتُ بها ففاض الدمع مني كمنحدرٍ من النظم الجُمانِ

(فاض الدمع مني) و تعتبر وسيلة استعملها الشاعر ليعبر عن أحاسيسه و مشاعره، و ألم الماضي و هي صورة واضحة لاشتياقه للشخص المذكور لأنه لم يبقَ له سوى الذكريات الجميلة .

---

(٤١) المكان في الشعر الأندلسي (من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ - ٤٢٢ هـ) ، (رسالة ماجستير)، محمد عبيد صالح السبهاني ، جامعة الأنبار ، ٢٠٠٥م : ١٢ – ١٣ .

(٤٢) ديوان تأبط شراً و أخباره ، جمع و تحقيق و شرح : علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٨٤م : ١١٥ و ١١٧ .

(٤٣) ينظر: المكان في الشعر الاندلسي : ١٣ .

(٤٤) فضاء القصيدة الجديدة التشكيل ، الذاكرة ، المكان ، د. علي صيلبي مجيد المرسومي ، كلية التربية الأساسية ، الجامعة المستنصرية ، مجلة الآداب ، ع : ١٠٩ ، ٢٠١٤م : ٢٦٧ .

(٤٥) شعر عروة بن الورد العبسي ، صنعه أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (ت ٢٤٤هـ) ، تحقيق : د. محمد فؤاد نعناع ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م : ١٣١ .

(٤٦) المكان في شعر الصعاليك و الفتاك (رسالة ماجستير) : ٧٨ .

و الفاعلية الذاكراتية في النص كانت في (منازل أم عمرو ، و منعرج ، و النواصف ، و أبان ، و وقفت ، و منحدرٍ ، و وصل حي) و التي أدت مفعولها الذاكراتي فاستعاد بها الشاعر ماضيه .

يقول عروة بن الورد [٤٧] :

سقى سلمى ، و أين محل سلمى ؟ إذا حلتْ مجاورةَ السرير

إذا حلـت بأرض بني عليّ و أهلُكَ بين امرةٍ وكيرِ

ذكرتُ منــازلاً من أم وهب محل الحي أسفل ذي النفير

مثّل النص مخزون ذاكراتي مكاني يحمل في طياته ذكرى للمكان الذي تسكنه زوجه قبل أن تفارقه ، يعمد فيه الشاعر الى ذكر تفصيلات المكان لما له من أهمية في نفسه . فهو يتذكر هذه الديار و يذكر اسم زوجه فيها .

و نجد في بداية النص ، علامة واضحة على فقدان الشاعر للطمأنينة و الأمان في داخله ، و الذي جعله يدعو لها بالسقيا ، لأنها تحمل دلالة العطش الى الاطمئنان في حياته ، ثم ينتقل ليسأل (أين ديار سلمى) ففيه استنكار وشجب للبعد بينهما فهو في (امرة و كير) ، أما هي في (السرير و أرض بني علي و ذي النقير) ، فهو لا يورد " أسماء الأمكنة تعداداً جغرافياً جافاً ، بل هي مواقع في مجال التجربة المتوترة ، و تبرز هذه الأسماء في بعض الأبيات حولها هالة من التوهج النفسي "[٤٨] فلهذه الأمكنة أثر كبير و مؤثر ذاكراتي على ذاكرة الشاعر المليئة بالذكريات الماضية التي افتقدها مع زوجه .

و في قوله جاءت لفظة (ذكرت) لتوضح للقارئ بأن الشاعر عاش تجربة واقعية أثارت عاطفته ، و هو ما يؤكد بأن المكان الذي تسكنه سلمى بعيد عنه فهو ما جعله يتذكر ديارها التـي تسكن فيها محاولاً التخفيف من حزنـه و شجونه اتجاهها ، فمنها " مهما كان التأثير العاطفي الذي يّلون مكاناً ، سواء كان حزيناً أو مضجراً ، فما دام قد تم التعبير عنه شعرياً فإن الحزن يتناقص و يخفُّ الضجر "[٤٩] .

و يستذكر الأعلم الهذلي ديار أهله فيقول [٥٠] :

حتى إذا انتصف النهـا رُ و قــلتُ يومٌ حقٌ ذائبْ

رفعتُ عينـي الحجــا ز الى أناسٍ بالمناقبْ

و ذكــرت أهلي بالعـرا ء و حاجة الشعثِ التوالب

يستذكر الشاعر ديار أهله ، و (الحجاز) مكاناً حقيقياً واقعياً ذكره ليعبر عمّا في داخله من مشاعر و أراد به بيان حجم المعاناة و الاشتياق لهم، و كيف كانوا يعانون في الصحراء ، فهو يرغب في العودة للعيش معهم بعد أنْ تركهم في العراء ، لذلك يقول : ذكرت أهلي بالعراء ، هنا استرجاع ذاكراتي واضح أعاد المكان الذكريات الى الشاعر ذلك المكان الذي كان يعيش فيه أهله و أطفاله . فذكر الديار تنبع من وجدان الشاعر لأنه العنصر الأساس في وجوده .

و هذا جُحدر العكلي يقول [٥١]:

([٤٧]) الديوان : ٣٣ ــ ٣٤ .
([٤٨]) الأسر و السجن في شعر العرب ، د. أحمد مختار البزرة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٥م : ٦٢٧ .
([٤٩]) جماليات المكان : غاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع : ١٨٣ .
([٥٠]) شرح أشعار الهذليين : ١ / ٣١٥ .

يا دار بين بُزاخةٍ فكثيبها فلوى غُبيرٍ سهلِها أو لُوبها

سقت الصِّبا أطلال ربعكِ مغدقاً يثهَلُ عارِضُها بلبسِ جُيوبها

أيّام أرعى العينَ في زهرِ الصِّبا و ثمار جناتِ النساءِ و طيبها

يبدأ الشاعر ب (ياء) النداء ، فهو يستدعي ذاكرته و ينادي الديار الموجودة في بزاخة و كثيبها و بعد هذه المناداة اشتياق و ألم داخل الشاعر لهذه الديار.

و ألفاظ المكان في النص الشعري هي (دار ، و بزاخة ، و كثيبها ، و سهلها ، و أطلال) كلها ذات ملمح ذاكراتي تحفز ذاكرة الشاعر على استذكار الماضي ، و تتيح له بأن يعبر عمّا في داخله من ذكريات تجمعه بالحبيبة و الديار ، ديار الطفولة، و أيام الصِّبا، و الشباب . و يقول (سقت الصِّبا) فيه دلالة على استرجاع لأيام الصِّبا و للأطلال التي بقيت خالية .

كذلك استذكر (سقت الصِّبا ، أطلال ، ربعك ، أيام أرعى العين في زهر الصِّبا) فهي كلها مخزونات ذاكراتية استعملها الشاعر لإظهار كوامن ما في ذاته ، فهذه الأماكن برزت لتكون " عاملاً لتحريك الشاعرية من خلال تداعي الذكريات " [٥٢] إذ تداخل معها عنصر الزمان ، فيقول :

أيّام أرعى العينَ في زهرِ الصِّبا و ثمار جناتِ النساءِ و طيبها

فكان للزمان أثر في شدّ انتباه المتلقي الى تلك الذكريات .

أدى هذا المكان دور المنبه الذي أيقظ الذاكرة من سباتها و نقلها الى الماضي الى المكان الذي كان يزخر بالحب و الحياة السعيدة ، قبل أنْ يطوي الزمن غباره عليه، و يصبح قفراً لا حياة فيه " [٥٣] .

و يقول قيس بن الحدادية أيضاً [٥٤] :

سقى الله اطلالاً بنعمٍ يا ترادفت بهن النوى حتى حللن المطاليا

فإن كانت الأيام يا أم مالك تسليكم عني و ترضي الأعاديا

فلا يأمنن بعدي امرءٌ فجع لذةٍ من العيش أو فجع الخطوب العوافيا

و بدلت من جدواك يا أم مالك طوارق هم يحتضرنَ و ساديا

و أصبحتُ بعد الأنس لابسَ جبَّه أساقي الكماة الدارعين العواليا

يفتتح الشاعر نصه بـ(سقى الله) فهو يدعو الله السقيا لديار محبوبته حتى تكون ذات نعيم دائم ، فهو يستذكر الأطلال ، و ما تبقى منها من آثار كامنة في بواطن ذاكرته .

و نجد في النص خطاباً موجهاً الى (أم مالك) تظهر من خلاله الفاعلية الذاكراتية التي تمنحه الطمأنينة للتحدث عن هذه الأطلال ، و (لذة العيش) هنا دلّت على وصف للذاكرة لأن اللذّة تأتي من الصفاء و الاسترخاء بعيداً عن المؤثرات المحيطة،

---

(٥١) ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي و الاسلامي ، صنعه د. محمد نبيل طريفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٤م : ١ / ١٥١ .

(٥٢) دلالة المكان في الشعر الجاهلي ، د. عمار بن القريشي و أ. معمري فواز ، مقالات الباحث العلمي ، جامعة محمد بوضياف – المسيلة ، ٢٠١٦ : ٩٣ .

(٥٣) المكان في شعر الصعاليك و الفتاك (رسالة ماجستير) : ٨٠ .

(٥٤) عشرة شعراء مقلّون ، صنعه : د. حاتم صالح الضامن ، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠م : ٤٣ – ٤٤ .

أيّ صفاء الذاكرة لذلك تقترن هذه الذاكرة بالأطلال ، لأن الشاعر عندما يتذكر ماضيه يشعر بالرضا و الاطمئنان بحياته ، لأن الماضي لا يمكن نسيانه فهو مخزون في الذاكرة .

كذلك أنّ البحث عن الذكريات و استحضارها من الماضي تساعد على استنهاض الذاكرة و هذا ما نجده في المثيرات الذاكراتية و هي (اطلالاً ، و المطاليا) كلها تحمل في طياتها ذاكرة مكانية استحضرها الشاعر للتعبير عن الماضي ، و ذكر الأطلال، و من خلال الشاعر " ندرك عمق العلاقة بينه و بين تلك الأمكنة التي مثلت حبيبته ، و بالتالي كانت الحافز الذي نبه الذاكرة و أيقظها من سباتها لتذكر الشاعر بالماضي الجميل الذي عهد به أحبته في تلك الأمكنة " [٥٥] ، و هذه المناجاة لغير الحي تثبت قدرة الشاعر على الأنشاء ، و على تحويل طبائع الأشياء و بث الحياة فيما ليس فيه حياة [٥٦] ، فيكون الشاعر قادراً على مخاطبة الديار و البكاء عليها و إرجاعها و كأنها مسكونة يعيشها الأهل و الأحباب .

و يقول (الأمطار) فإن ما بقى من هذه الأمكنة التي تغيرت معالمها بفعل الرياح، و صارت بقايا مرسومة ، و منحوتة نزلت عليها الأمطار، و تحولت الى معالم خالية بالية خربة و مرعى للحيوانات . فالشاعر يربط بين معالم هذه الأمكنة الخالية، و بين ترك حبيبته له ، لأن المكان له " أبعاد نفسية تؤثر في الذات البشرية سلباً و إيجاباً، و ذلك لما يثيره هذا المكان من مشاعر، و أحاسيس، فهو المرآة العاكسة للذات" [٥٧] .

و أبو الطمحان القيني ، يقول [٥٨]:

لمن طللٌ عافٍ بذات السلاسل — كرجع الوشم في ظهور الأنامل

تبدت به الريح الصبا فكأنما — عليه تذري تربه بالمناخل

و جر عليه السيل ذيلاً كأنه — اذا التف في الميثاء إسفاف ساحلِ

وقفتُ به حتى تعالى لي الضحى — أسائله ما إن يبين لسائل

و لما رأيت الشوق مني سفاهةً — و أن بكائي عن سبيلي شاغلي

صرفت و كان اليأس مني خليقةً — اذا ما عرفت الصرم من غير واصلِ

يبوح النص بذكر الأطلال التي قلت عند الشعراء الصعاليك ، فنجد الشاعر يبتدأ بقوله :

لمن طللٌ عافٍ بذات السلاسل — كرجع الوشم في ظهور الأنامل

فاستعمل لفظة (لمن طللٌ) و هو سؤال يدل على التوهم، و عدم المعرفة ، استذكر من خلالها أطلال محبوبته التي شبهها بالوشم في ظهور الأنامل ، ففي ذلك استذكار للماضي وللذكريات التي جمعته مع محبوبته " فلا عجب ان وجدناه يشبه الطلل بالوشم الذي يجمل جسم الانسان ، لأنّ هذه الديار تجمل المكان " [٥٩] . و يقول :

تبدت به الريح الصبا فكأنما — عليه تذري تربه بالمناخل

([٥٥]) المكان في شعر الصعاليك و الفتاك (رسالة ماجستير) : ٨١ .
([٥٦]) ينظر: بنية القصيدة الجاهلية (الصورة الشعرية لدى امرئ القيس) ، ريتا عوض ، دار الأدب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م : ١٨٧ .
([٥٧]) دلالة المكان في الشعر الجاهلي : ٩٢ .
([٥٨]) ديوان اللصوص : ١ / ٣٢٣ – ٣٢٤ .
([٥٩]) الطبيعة في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، دار الإرشاد للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م : ٢٥٤ .

لفظة (الريح) هي كفيلة بأن تجعل المكان على غير حاله ، فهو شبه تلك الاطلال كالوشوم بسبب تعرضها للرياح ، والرياح تحمل معها الأتربة التي تغير الملامح فتغيرت معالمها ، و تغير المكان الذاكراتي للشاعر نتيجة عوامل التعرية.

ونجد ان المخزون الذاكراتي للشاعر متأثراً بالذاكرة الماضية التي لاحقت أطلال المحبوبة ، من خلال الرياح والسيول الجارفة نتيجة عوامل الطبيعة ، و المخزون ذاكراتي أثار أحاسيس الشاعر تجاه الأطلال ، فهو يسأل حتى الصخر، و لكن لا احد يجيبه . فهو يبحث في اروقة ذاكراته لكن لا يجد ما يشفي ما في باله ، ثم يعود و يقول : و لما رأيت الشوق مني ، هنا يرى ان لفظة (الشوق) تحمل دلالة الغربة والحنين الى المحبوبة ويقابلها لفظة (بكائي) التي تدعو إلى الحزن واليأس على شيء لا فائدة فيه ، فاسترجاع الشاعر هنا ذات دلالة عقلية ، فعقله أرجعه الى رشده بأن لا فائدة لشيء لا يمكن إرجاعه ، فالعلاقة عكسية ما بين ذاكراته المكانية وعقله ، بحيث ينتهي النص الشعري بتغلب عقله على المكان الذاكراتي عندما قال :

صرفت و كان اليأس مني خليقةً اذا ما عرفت الصرم من غير واصلِ

أما مالك بن الريّب ، يقول [٦٠] :

تذكرني قبابُ التركِ أهلي و مبداهم اذا نزلوا سناما

و صوت حمامةٍ بجبال كسّ دعتْ مع مطلع الشمس الحماما

فبتُّ لصوتها أرِقاً و باتتْ بمنطقها تُراجعنا الكلاما

يبدأ النص بلفظة (تذكرني) ، و هذه اللفظة كفيلة بأن تحدد هوية النص ، فهو نص ذاكراتي بحت ، اعتمد على استذكار الماضي من الذكريات و الحنين الذي يؤلف " بقيمته الشعورية و اللاشعورية العليا عنصراً أساسياً، و جوهرياً في عملية التذكر ، و ربما لفرط حساسيته يتجلى نشاطه في عملية التنصيص الشعري أكثر من أي تنصيص آخر " [٦١] .

و مثل الشاعر حنينه الى المكان ، و الأهل و الأقارب بقوله :

تذكرني قبابُ التركِ أهلي و مبداهم اذا نزلوا سناما

فاستذكر أهله نتيجة للغربة التي عاشها في بلاد الترك عندما كان يقاتل هناك ، و استعمل لفظة (قباب الترك) و هو المكان الذي أثار أشواقه ، و حنينه الى أهله و دياره ، فهذا المكان ذكره بأهله عندما كانوا ينزلون به (فالقباب) هنا مثير لذاكرة الشاعر الذي استرجع مخزونه الذاكراتي .

و قد استعمل (صوت حمامة) و هي ذاكرة سمعية أثارت أحساس الشاعر للتعبير عمّا في داخله من ذكريات ، فالحمامة رمز عبر به عن أحساسه الداخلي ، فهي تنوح، و تترنم، و هذا الصوت أثار أحساسه و ذكره بذلك الوادي الذي عاش فيه ، فيقول :

و صوت حمامةٍ بجبال كسّ دعتْ مع مطلع الشمس الحماما

ذكر مطلع الشمس التي تحمل دلالة الشروق لبداية يوم جديد ، و مع صوت الحمامة فهو يحاول الهروب من واقعه الحزين و العودة الى الماضي الذي يحمل كل معاني الحب و الصفاء و الحنين لأهله و دياره .

---

(٦٠) ديوان مالك بن الريّب حياته و شعره ، تح : د. نوري حمودي القيسي ، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج١٥ ، ج١: ٨٥ – ٨٦ .

(٦١) التشكيل الجمالي للمكان و بناؤه الفني في الشعر العربي الحديث (١٩٤٠ – ٢٠٠٠م) ، د. ياسر فيصل صالح العامري ، نور حوران للدراسات و النشر و التراث ، دمشق- سوريا ، ط١ ، ٢٠١٩ : ٢٥ .

الشاعر هنا ذكر أماكن واقعية من أجل مخاطبتها تعبيراً عن ما في داخله ، فهو يستحضر هذه الأماكن ليتذكر أهله و يتذكر ماضيه ، و هذا المخزون الذاكراتي للمكان يكون ذا دلالة تعبيرية عن حالته الشعورية التي انتزعها من ذاكرته ، و ما يؤكد ذلك الألفاظ (تذكرني ، و قباب الترك ، و أهلي ، و سنامهم ، و صوت حمامة ، و جبال كسّ ، و مطلع الشمس ، و الحماما ، فبتُ ، و تراجعنا) فهي مثيرات ذاكراتية تستدعي استحضار الذاكرة من أجل الهروب من الحاضر الى الماضي .

و يقول أيضاً [٦٢] :

ألا ليـــت شعـري هـل أبيتـــن ليـلة بجنب الغضا أُزجي القلاص النواجــيا

فليت الغضا لـــم يقطع الرّكب عرضه و ليــت الغضا ماشى الـركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا مـزارٌ و لـكنّ الغضـــا ليـس دانـــيا

النص عبارة عن ذاكرة مكانية ، و هذه الذاكرة جعلت الشاعر يستذكر أهله في وادي الغضا و هو في حالة تمني و يأس في نفس الوقت بأن يعيش معهم في هذا الوادي ، و استعمل اسلوب التكرار بـ (ليت) فهو يتمنى أن يعيش و لو ليلة واحدة مع أهله " فالشاعر بدا عجزه واضحاً من الرجوع الى الماضي في وادي الغضا ، حيث موطنه القديم ، فهي عبارة عن أحلام خيالية شكّل فيها التكرار ظاهرة سيكولوجية تنم عن حدث قهري أظهر فيه كل لوعته ، و يحاول الشاعر فيه تنشيط ذاكرته و اعادة الحياة الى سابق عهدها " [٦٣] . كما ان استذكار المكان يعمل على تنشيط ذاكرة الشاعر ، فالمكان هو المثير الذاكراتي للشاعر و الذي أدى دور المحفز الذاكراتي له من أجل تخفيف الآمه .

و استعمل لفظة (الغضا) لأن الغضا هي أشجار شديدة التوهج عند حرقها و هذا يتناسب مع أحزانه و آلامه في قلبه ، فهو شبه ما يعانيه من حرقة و ألم و حالة نفسية متحطمة بهذه الأشجار.

و السمهريّ يقول [٦٤]:

بكيت و ما يبكيك مــن رسم منزلٍ على حفر السّيدان اصبح خالياً

خــلا الريــاح الـراسيات تغيرتْ معـارفُهُ الا ثــلاثـاً رواسيا

أفتتح الشاعر ابياته الشعرية بلفظة (بكيت) التي تحمل دلالة الحزن الشديد ، و إعادة الذكريات والبكاء على الماضي وديار المحبوبة ، و البكاء هنا للتخفيف عن النفس نتيجة تراكم الذكريات الحزينة يستذكر بأن هذه الديار اصبحت خالية ، فهو يقف على هذه الديار ويبكي و يستذكر محبوبته فيها.

ثم يعود ويلقي اللوم على فعل الزمن بتغيير معالم هذه الديار بتدخل الرياح فيها و التي حولتها الى خربة لا حياة فيها غير تجمع تلك الاحجار التي تحملها الرياح فأصبح ، " البكاء بذلك تعبيراً غير لساني يؤشر الى تداعي الذكريات و عمق التأثر و يعزز التعبير اللساني المتمثل ببث الشاعر و ما يجوش بداخله الى الدرجة التي كادت الاحجار و ملاعب الديار أنْ تجيبه و تكلمه لو استطاعت الى ذلك من سبيل ...، اذ اصبحت الديار أكواماً من الحجر غير الناطق "[٦٥] .

([٦٢]) الديوان : ٨٨ .

([٦٣]) الصورة السيكولوجية في مرثية مالك بن الريب ، كرار عبد الاله عبد الكاظم الإبراهيمي ، مجلة أمارات في اللغة و الأدب و اللغة ، العراق ، المجلد: ٥ ، ع : ١ ، ٢٠٢١م : ١٥٣ .

([٦٤]) ديوان اللصوص : ١ / ٢٨٧ .

([٦٥]) دلالات البكاء و موضوعاته في الشعر الأموي ، د. بدران عبد الحسين البياتي ، كلية التربية ، جامعة كركوك ، مجلة كلية الآداب ، ع : ٩٨ : ٨ .

إن للذاكرة أثراً واضحاً في أشعارهم نتيجة لواقعهم الصعب فلجأوا الى ذكر الأماكن و ذكر الأطلال للهروب من قسوة الواقع الذي يعيشونه ،إذ ان الشاعر الصعلوك من خلال هذه الأمكنة " يسجل كل ما تختزنه ذاكرته من ملامح و شواهد تلك الأمكنة حاضرة كانت أو داثرة " [٦٦]، و يستذكر مراحل طفولته و مرابع صباه، و أهله ، و محبوبته و كل الذكريات التي عاشها في الماضي .

الخاتـــــمة:

لقد تبيّن لنا بعد هذا المسير في البحث مع الشعراء الصعاليك أنهم ليسوا بمعارضين لنظام القبيلة و عاداتها و تقاليدها ، وإنما كانوا يعارضون النظام القبلي السائد معارضة فنية.

و نجد شعر الصعاليك في معظمه النفور من (الهو ، نحن) و التكلم بصيغة الضمير (الأنا)، و القصد من ذلك التجمع ولم الشتات، ولكن الصعلوك يبقي على تفرده و فرديته و ذاته، بجسده وغريزته وانفعالاته، وليس ذلك الانسان الذي تضبطه قوانين الآخر، فيحدد بمكان، و يقيد بزمان، و إنما ينشد حركية الزمان واستمراريته نحو المستقبل، مصيره مرتبط بالطبيعة، و ليس بالقبيلة ، فهو انفصام مكاني وتميز عن الآخر.

و إن صورة المكان في ذاكرة الشعراء الصعاليك أخذت حيزاً كبيراً في اشعارهم ، لأن المكان يمثل العنصر الأساسي في وجود الشاعر، و لأن الشعراء الصعاليك كانوا شديدي الارتباط بالمكان لأنه يمثل مرحلة مهمة من حياتهم في تحريك شاعريتهم ، من خلال تداعي الذكريات و الأحداث التي حدثت معهم . و المخزون الذاكراتي عند الشاعر أثار فاعليه الذاكرة لديه وعمل على استعادة تذكر الماضي المتمثل بالديار . و قد انعكس كل ذلك على ذاكرتهم التي تمثلت بالتجربة الواقعية المعاشة التي تحاكي الشاعر ، فكان عنصر المكان مسيطراً على ذاكرتهم ، لأن الذاكرة هي وسيلة الشعراء ، فعن طريقها يستذكروا الأمكنة .

المصـادر و المـراجع

- القـرآن الكــريم .

١. الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، د. عبد القادر فيدوح ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٩م .
٢. الأسر و السجن في شعر العرب ، د. أحمد مختار البزرة ، مؤسسة علوم القرآن ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٥م .
٣. أسرار السرد من الذاكرة الى الحلم (قراءات في سرديات سعدي المالح) أعداد و تقديم و مشاركة د. محمد صابر عبيد ، دار الحوار ، اللاذقية ، ط١ ، ٢٠١٢م .
٤. بنية القصيدة الجاهلية (الصورة الشعرية لدى امرئ القيس) ، ريتا عوض ، دار الأدب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م.
٥. تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط٨ .
٦. التشكيل الجمالي للمكان و بناؤه الفني في الشعر العربي الحديث (١٩٤٠ – ٢٠٠٠م) ، د. ياسر فيصل صالح العامري ، نور حوران للدراسات و النشر و التراث ، دمشق- سوريا ، ط١ ، ٢٠١٩م .
٧. تنصيص الذاكرة في الشعر العراقي الحديث – التجربة الشعرية عند الروّاد – ، د. فاتن عبد الجبار جواد ، تموز للطباعة و النشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠١٢م .
٨. الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب القديم، حنّا الفاخوري، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦م .
٩. جماليات المكان : غاستون باشلار ، ترجمة : غالب هلسا ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع .

(٦٦) الزمان و المكان عند شعراء السجون في العصر الأمويّ ، د. حسين عبد حسين ، أحمد كريم جابر ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، مجلة آداب الكوفة ، ع : ٥٢ ، ج١ ، ٢٠٢٢م : ٢٤٣ .

١٠. الخيال الشعري عند العرب ابو القاسم الشابي، أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط١، ١٩٩٥م .
١١. الخيال مفهوماته و وظائفه ، د. عاطف جوده نصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤م .
١٢. دراسات في الأدب الجاهلي، عبد العزيز نبوي، مؤسسة المختار، ط٣ .
١٣. ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي و الاسلامي ، صنعه د. محمد نبيل طريفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٤م .
١٤. ديوان حاتم الطائي، دار صادر، بيروت، ١٩٨١م .
١٥. ديوان تأبط شراً و أخباره ، جمع و تحقيق و شرح : علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٨٤م .
١٦. ديوان كعب بن زهير، حققه و شرحه وقدم له الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ١٩٩٧م .
١٧. ديوان مالك بن الريب حياته و شعره ، تح : د. نوري حمودي القيسي ، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية ، مج١٥ .
١٨. الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، د. جمال شحيد، المؤسسة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١١م .
١٩. الذاكرة في الفلسفة و الأدب، ميري ورنوك، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٧م .
٢٠. الذاكرة و المتخيل نظرية التأويل عند غاستون باشلار، د. أحمد عويز، دار الرافدين ، بيروت – لبنان ، ط١، ٢٠١٧م .
٢١. شعر عروة بن الورد العبسي ، صنعه أبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (ت ٢٤٤هـ) ، تح : د. محمد فؤاد نعناع ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٥م .
٢٢. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، د. يوسف خليف، دار المعارف ط٣ ، ١٩٦٦م .
٢٣. الشعراء الصعاليك في صدر الاسلام والعصر الأموي، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٠م .
٢٤. الصعاليك في العصر الأموي اخبارهم و أشعارهم ، محمد رضا مرَّوة ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٩٩٠م.
٢٥. الطبيعة في الشعر الجاهلي ، د. نوري حمودي القيسي ، دار الإرشاد للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م .
٢٦. عشرة شعراء مقلّون ، صنعه : د. حاتم صالح الضامن ، وزارة التعليم العالي و البحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠م .
٢٧. فاعلية الذاكرة في تليباثي بين أسطرة الواقع وسحر الخيال، د. ايمان العبيدي ، دار غيداء للنشر ، بغداد، ط١، ٢٠١٨م .
٢٨. في الذاكرة الشعرية ، قيس كاظم الجنابي ، مطبعة العاني ، بغداد .
٢٩. القاموس المحيط ، مجد الدين محمد الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، اشراف : محمد نعيم العرقسوي، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ط٨، ٢٠٠٥م .
٣٠. كتاب جمهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، حققه وقدم له د. رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٧م .

٣١.كتاب شرح أشعار الهذليين ، صنعه أبي سعيد الحسن بن الحسين السُكَّري ، رواية أبي الحسن بن علي النحوي عن أبي بكر أحمد بن محمد الحلواني ، تح : عبد الستار أحمد فرج ، راجعه محمود محمد شاكر ، مكتبة دار العروبة ، ١٩٦٥م .
٣٢.لسان العرب لابن منظور ، تح :عبدالله علي الكبير ، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة ، د. ط .
٣٣.المعجم المفصل في الأدب، د. محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٩٩.
٣٤.المكان في النصّ المسرحي ، سمير علي الدليمي ، دار الكندي للنشر و التوزيع ، اربد ، الأردن ، ١٩٨٨م .

الرسائـل و الاطـاريـح

١. المكان في الشعر الأندلسي (من الفتح حتى سقوط الخلافة ٩٢هـ - ٤٢٢ هـ) ، رسالة ماجستير ، محمد عبيد صالح السبهاني ، جامعة الأنبار ، ٢٠٠٥م .
٢. المكان في شعر الصعاليك و الفتاك الى نهاية العصر الأموي ، رسالة ماجستير ، خالد جعفر مبارك ، جامعة ديالى ، ٢٠٠٦م .

البـحـوث

١. إرادة النسيان: اللغة والتاريخ عند بول ريكو، منذر شباني، سورية ، مجلة جامعة تشرين للبحوث، سلسلة الآداب والعلوم الانسانية ، المجلد ٤٠، العدد : ٣ ، ٢٠١٨م .
٢. الزمان و المكان عند شعراء السجون في العصر الأمويّ ، د. حسين عبد حسين ، أحمد كريم جابر ، جامعة الكوفة ، كلية الآداب ، مجلة آداب الكوفة ، العدد : ٥٢ ، ج١ ، ٢٠٢٢م .
٣. الصورة السيكولوجية في مرثية مالك بن الريب ، كرار عبد الاله عبد الكاظم الإبراهيمي ، مجلة أمارات في اللغة و الأدب و اللغة ، العراق ، المجلد: ٥ ، العدد : ١ ، ٢٠٢١م .
٤. دلالات البكاء و موضوعاته في الشعر الأموي ، د. بدران عبد الحسين البياتي ، كلية التربية ، جامعة كركوك ، مجلة كلية الآداب ، العدد : ٩٨ ، ٢٠١١م .
٥. دلالة المكان في الشعر الجاهلي ، د. عمار بن القريشي و أ. معمري فواز ، مقالات الباحث العلمي ، جامعة محمد بوضياف – المسيلة ، ٢٠١٦م .
٦. فاعلية الذاكرة في شعر ابن زيدون ، د. صالح ويس محمد ، جامعة تكريت ، كلية الآداب، مجلة آداب الفراهيدي، المجلد ١٢، العدد : ٤٣ ، ٢٠٢٠م .
٧. فضاء القصيدة الجديدة التشكيل ، الذاكرة ، المكان ، د. علي صيلبي مجيد المرسومي ، كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية ، مجلة الآداب، العدد : ١٠٩ ، ٢٠١٤م .
٨. قراءة في ديوان غنائيات الحب و الحياة ، عبد اللطيف أرناؤوط ، المجلة العربية ، سوريا ، العدد : ٩٨ ، ١٩٩٣م .